الفصل الثانى

عن دراسة تاريخ الفكر التربوى

موضوع هذا الكتاب « تطور الفكر التربوى » ولا نستطيع أن نتصور دراسة تطورية دون الرجوع إلى الماضى والنمو معها إلى الحاضر . على أننا نتوقع اهتماماً أساسياً بالأفكار التربوية التى نادى بها أفراد عن قصد وعمد أو جاءت فى ثنايا كتاباتهم وتشريعاتهم دون أن يضعوا لها عنواناً مميزاً .

وقد تكون معالجة تطور الفكر التربوى بأن يتحول هذا الكتاب إلى فصول يختص كل فصل منها بدراسة حياة وآراء أحد المربين أو الفلاسفة الذين أدلوا بدلوهم فى التربية وميادينها . وقد لجأ إلى هذا السبيل روبرت يوليك فى كتابه « تاريخ الفكر التربوى » . ويعترف فى مقدمة كتابه (١) بأن الوقت قد حان لكتابة تاريخ للفكر التربوى لا يقتصر على المفكرين الغربيين فحسب ، وما العالم الغربى إلا جزء من مدنية البشر . ثم يضيف قائلا إن الغرب نسى فى غمرة غروره وبالرغم من دسامة تراثه الفلسفى أنه لم يكن مهداً لديانة عالمية ، وقد ظهرت ديانات فى الشرقين الأوسط والأقصى متخذة قارة آسيا دون قارات العالم مصدراً للديانات الكبرى ، وأن هذه الديانات قد قدمت لتربية الإنسان أضعاف ما قدمه فلاسفة الغرب .

ثم يقدم لنا يوليك المفكرين التربويين فى فصول متفرقة ، فيبدأ بأفلاطون ثم أرسطو ثم بلوتارك ثم كوينتليان ثم السيد المسيح ثم ينتقل إلى الكنيسة القديمة ثم الكنيسة فى العصور الوسطى ثم الحركة الإنسانية (ويتناول على الخصوص الكلاسيكيين الأوائل ولوثر وإيرازمس وطريقة الجزويت فى

---

(١) Ulich, Robert : History of Educational Thought, p. VIII

التربية ثم مونتانى) ، ثم يعرج يوليك بعد ذلك إلى عرض الطريقة الحديثة فى التفكير (ويتناول على الخصوص فرنسيس بيكون ، ورينيه ديكارت ثم جاليليو) . ثم يتناول يوليك فى الجزء الأكبر من كتابه من يطلق عليهم « جمهرة المربين » وهم كومنيوس وجون لوك وجان جاك روسو وبنجامين فرانكلين وبستالوتزى وهاربارت وفروبل وإمرسون ، ثم يختم هذه الجمهرة بجون ديوى .

وسوف يلاحظ القارىء ، أو قد يعرف سلفاً ، أن بين هذه الأسماء الفلاسفة ورجال الدين .

ولن أتبع طريقة يوليك فى تقديم تاريخ الفكر التربوى فى فصول يشتمل كل فصل منها على مفكر أسهم فى هذا الميدان بآراء استحقت أن تتبوأ مكانها فى التاريخ . وإنما سوف تكون « التربية » محوراً وركيزة فى علاقاتها مع الدولة ومع الفلسفة ومع الاقتصاد .

ولكن الموضوع كما بينت مرتبط كل الارتباط بالتاريخ ، ولذلك فسوف أكرس هذا الفصل للحديث عن التاريخ ودراسته ، وكيف أن الدراسة الصحية للتاريخ ، كما أتصور ، أساسية فى فهمنا للتطور التاريخى للفكر التربوى ، وعن التاريخ نتناقش .

ولو أن إنسان اليوم يهتم أشد الاهتمام بما يشغل حياته كالمواصلات والملابس وأدوات التسلية واللهو ، فهو مع ذلك أكثر حساسية بحوادث التاريخ وما سلف من الأخبار . وقد قدم المؤرخون فى المائة سنة الأخيرة مادة تاريخية يمكن أن يعتمد عليها ، فهى قد خضعت لأساليب علمية فى البحث ، بين الآثار فوق الأرض وتحتها ، وبين صفحات الكتب القديمة والبقايا التى ألقت أضواء على الماضى . واهتمام المؤرخين المحدثين بالماضى يمكن أن يظهر بريقه إذا عرفنا أن مؤرخاً يونانياً قديماً هو ثايكيديديس بدأ تاريخه عن الحرب البلبونيسية قائلا إنه لم يحدث قبل عصره شىء مهم . أما مؤرخو اليوم فلديهم كلام كثير عما حدث قبل هذه الحرب من أحداث

فى العالم وقتئذ ، فى بلاد الإغريق وقبلها فى مصر والصين .

ويفخر التاريخ اليوم بأن الروح والاتجاهات العلمية قد عرفت طرائقها إليه . ولم يعد التاريخ مجرد سرد لأحداث يعتمد على الأسلوب الفنى والأدبى والتفكير الفلسفى . الموضوعية يجب أن تكون رائد كاتب التاريخ . ولكن المؤرخ فنان فى عرضه للتاريخ ، فالمؤرخون منذ هيرودوت إلى توينبى قد اتصفوا بقدراتهم على تصوير الأحداث ... ولكن هل كانت الصور صادقة ؟

دارس التاريخ المخلص يحب فى التاريخ صدقه وبعده عن الحوادث المزوقة والتى لفها المؤلف فى رداء من المغريات اللغوية ، إنما هو يحب التاريخ منزهاً ومطهراً من الإضافات التى تهز صدقه .

على أن المؤرخ كما يقول مولر (١) يجد نفسه متأثراً بعوامل شخصية ، ويقول « ليس هناك تاريخ نقى لم يسجل من وجهة نظر شخصية ما لصالح شخص ما » . وفى رأيه أن كاتب التاريخ يضع نفسه فى الصورة ، ثم هو يكتب بقدر ما وصل إليه من قدر من الحقائق التاريخية ، وقد تغيب عنه حقائق لها أهميتها القصوى . كما أنه يكتب عن بعض ما حدث لا عن كل ما حدث . وهو الذى يقدر أيها المهم والأهم وأيها الأقل أهمية .

والتعميم فى التاريخ ووضع قواعد عامة بدقة وتأكيد علمى أمر غير ممكن ، فنحن لا نستطيع أن نعزل أو نقيس القوى المتعددة المتوقعة وغير المتوقعة التى تؤثر فى الحدث التاريخى . من هذه القوى البيئة الطبيعية وضغوط الثقافات المجاورة والمخترعات والاكتشافات وعبقريات القادة والزعماء والمؤسسات الاقتصادية والسياسية والدينية .... وهذه تتفاعل بعضها مع البعض . ونتاج التفاعل ليس من السهل التنبؤ به . وإذا اعترفنا أن لكل من هذه العوامل أهميته وأثره مضافاً إليه ما فى طبيعة الأفراد من ميول واتجاهات قابلة للتغير والتحول ، فاننا قد نستطيع القول بأن التاريخ لا يعيد نفسه . قد تتشابه الحوادث شكلا ، ولكن اختلاف الزمان والمكان يحتم تغيراً .

---

(١) Muller. H. : The Uses of the Past, p. 38.

ومع ذلك فالإنسان هو صانع هذه الحوادث كما أنه الكائن الوحيد الذى كون لنفسه ثقافة . وقد بينت أن الثقافة تعنى بيئة من صنع الإنسان . وقد ساعده على بناء ثقافته عجزه فى طفولته ، فطفولة الكائن البشرى ضعيفة وطويلة تتيح له الفرص لتعلم ما أنجزه الكبار ممن يعيشون معه أو عاشوا فى أزمان سابقة . بل وأحياناً فى بلاد نائية .

لكن هناك قوى غير مرئية فى هذه البيئة التى صنعها الإنسان (ثقافته) ولهذه القوى سيطرة شديدة عليه ، بل إنها أخضعته إليها فضحى بحياته فداء هذه القوى وتعذب وتألم وصام وتخلص من الملذات ... وربما متحدياً بذلك قوانين طبيعة جسمه واحتياجاته ...

ومع هذا فان الإنسان قد خلق ثقافته ويعيش فيها محققاً بذلك نصراً لعقله وإرادته ، وابتكر واخترع وطور ... أما القوى الخفية ذات السلطة الجبارة فانها تعمل من خلال أفكاره ومعتقداته . وقد يحلو لبعض الفلاسفة مثل فخته وهيجل وكارلايل أن يروا فى العظماء من الرجال وكلاء لهذه القوى الجبارة.. وهنا يقفز السؤال ، هل هؤلاء الرجال صنعوا التاريخ أم أن التاريخ صنعهم ؟ ولعل المشكلة الحقيقية تتبلور فى تحديد أثر هؤلاء العظماء على بيئاتهم وأثر بيئاتهم عليهم . من الممكن الاستغناء عن بعض العظماء ، ففى رأى أنه لو لم يكتشف كولمبس أمريكا لاكتشفها غيره ، ولو لم يخترع وات القاطرة البخارية لاخترعها غيره ؟ ؟

ومن الواجب أن يتشبع حكمنا لما دار فى التاريخ بالتعقل ووزن الأمور ، فلا نحكم على الأحداث والأشخاص بمعاييرنا الحاضرة ، ولذلك نتلمس الأعذار لأرسطو عندما لم يجد غضاضة فى أن يكون فى المجتمع سادة وعبيد ، وأن ننظر بغضب إلى حرق المسنات من النساء لأنهن اشتغلن بالسحر والشعوذة ولعل الذين أمروا بحرقهن والذين شاهدوا عملية الحرق بفرح وتلذذ ، لعل هؤلاء وأولئك كانوا مدفوعين بعوامل دينية أكدها جهلهم وضيق أفقهم . ومع ذلك فلا نستطيع إلا أن نصفهم الآن بالقسوة وأن نصف غيرهم

بالتعصب الأعمى وغيرهم بالهمجية والبربرية والوحشية ... هل ننظر إلى أعمال هولاكو المدمرة وغزوات جانجيز خان الساحقة إلا بهذه الصفات ؟

ثم نتطور مع سلسلة التاريخ إلى يومنا هذا ونتطلع إلى العالم المحيط بنا ، بما فيه من توترات وتحزبات . وقد بدأ مؤرخو الغرب يبصمون وجوههم شطر الكنوز الفكرية التى خلفها الشرق والتى لم يلق إليها إلا اليسير من الاهتمام فى الماضى . وهربرت مولر مفكر غربى له مكانته يقول (١) .. « ولعل أقبح مثال هو التعصب العنصرى .. فان بعض المؤرخين ما زالوا يرددون القول بأن الجنس الأبيض هو خالق المدنية الحديثة وأن سكان الشمال والانجلوساكسون هم أعمدة هذه المدنية .. إن هذه الفكرة البغيضة الوقحة ما زالت تجد صدى عند الكثيرين . وتجد فكرة التميز العنصرى صدى عميقاً فى عالم الانجلوساكسون ولا يقبلون مطلقاً أى إشارة للتزاوج بين أبيض وملونة أو العكس ... ولم يكن لهذه التفرقة شواهد تؤيدها عبر التاريخ .

وحيث إن معظم سكان العالم هم ممن يطلق عليهم الأمريكيون صفة الملونين وبالتالى فهم أدنى فى المستوى ، فيصبح من الضرورى أن نعيد القول بأن هذا الاتجاه ممعن فى التعصب ، ولا يتفق مطلقاً مع الديمقراطية والمسيحية ، كما لا يستند إلى أسس علمية . وليس هناك جنس نقى تمام النقاء ، ولا تمثل الاختلافات بين الأجناس إلا جزءاً صغيراً مما يرثه الفرد البشرى ... وحتى هذه الفروق الواضحة بين لون بشرة أبيض وأصفر ، ورءوس طويلة ورءوس عريضة ، وشعر مستقيم وشعر مفلفل ... كل هذه الفروق وغيرها لا قيمة تذكر لها عندما نتحدث عن البقاء . وقد أثبت التاريخ أن تمازج الأجناس تمخض عن عصور ذهبية . ولم نعرف أن جنساً واحداً قاد المدنية عبر عصورها ، فكل الأجناس كانت قادرة على التقدم والتطور » .

ومن أصناف التحيز والتعصب ، القوميات والأديان . خير فى أن يعتز ويفخر الفرد بقوميته وديانته ولكن ليس من الخير أن يحارب البقاء مع

---

(١) Muller, Ibid., p. 44.

قوميات وديانات أخرى . من السفه أن نحقر معتقدات الغير ، ولن نقبل أن يسخر أحد من معتقداتنا ودينا . خير كثير فى أن نأخذ مما عند الغير ما يتناسب مع معتقداتنا وأن نقبله بين ظهرانينا أخاً فى البشرية إذا عرف هو نفسه معنى الأخوة فلم يهددنا فى آمالنا ومعتقداتنا وأرزاقنا . ومن الخير الكثير أن يتسع الأفق وأن نرى أنفسنا جزءاً فى عالم نتأثر به ونؤثر فيه . وفى هذا الصدد يحدثنا المؤرخ الكبير توينبي فيقص عن الامبراطور بابور الذى تربع على عرش إمبراطورية الهند حوالى عام ١٥٠٠ م ، وكان واحداً من الأتراك الذين ركبوا للغزو والفتح ومدوا سلطانهم من منغوليا فى الشرق إلى الجزائر فى الغرب ، وسيطروا على معظم العالم المتمدين وقتئذ إلا الصين . وعرف بابور ، كرجل مثقف عالم ، أن فئة من الناس اسمهم الفرنجة البرابرة قد جاءوا منذ مدة إلى الأرض المقدسة ثم طردوا منها ، وكان مجيئهم مهدداً للمدنية . وعلم أن هؤلاء الكفرة ما زالوا يعيشون فى شبه جزيرة ممتدة من آسيا واسمها أوربا . ولم يستحق هؤلاء الفرنجة البرابرة منه أى اهتمام فلم يذكرهم فى كتاباته ؛ كما أنه لم يدر أنهم وصلوا فى بعض المراكب إلى شواطىء الهند ونزلوا البر وأقاموا فى أماكن متفرقة ... ولم يكن يتصور أن هؤلاء البرابرة سوف يسيطرون على معظم العالم المتمدين ... ومن بينه إمبراطوريته هو .

ثم يذكر شيخ المؤرخين توينبي أنه حدث بعد ثلاثمائة سنة من وقت بابور أن كتب مؤرخ فى كتاباته نفس المعنى ؛ ألا وهو تصور أن المدنية والتحضر قاصران على المكان الذى يعيش فيه الإمبراطور أو المؤرخ . والمؤرخ الذى يتحدث عنه توينبي هو الجبرتى . قال إن الجبرتى المؤرخ المصرى كتب مؤرخاً عن حوادث سنة ما أنه حدث فيها حادث خطير لم يسبق له مثيل فى العالم . وهو حادث جدير بأن تعرف السنة به لأن له آثاراً سوف تهز أركان الدنيا . وكان الحادث أن الحجاج المصريين منعوا من السفر إلى مكة لأداء فريضة الحج . وكانت هذه السنة هى التى نزل فيها نابليون بونابرت أرض مصر .

لتتسع آفاق التفكير إذن ولا تقتصر على ما نادى به مفكرونا ، كما على

الغرب أن يبحث فى كنوز تركتها شعوب غير غربية وسوف يجد فيها ما يذهله إن لم يكن قد وجد فعلا .

بهذه الروح ، وهذا الاتجاه فى معالجة التاريخ سوف يكون حديثنا عن تطور الفكر التربوى . فسوف نطرق معاً أبواب الشرق ونأخذ من مفكرى الغرب ونقيم آراء المفكرين العرب معطين كل ذى حق حقه . ومع امتزاج هذه الأفكار الشرقية والغربية نرجو أن نجد ما يساعدنا فى عملنا كمربين .

فى ضرورة دراسة تاريخ وتطور الفكر التربوى

التربية فى خدمة المجتمع . تعمل منه وله . بهذا المفهوم تصبح التربية ذات وظيفة واضحة المعالم ، ولا تسبح فى فراغ لا ندرى أوله من آخره . وإذ آمن المربون بهذه الصفة الوظيفية للتربية فجدير بهم أن يتعرفوا على الأسس الاجتماعية للعملية التربوية فى جانبيها النظرى والعملى .

قمين بالمربى أن يلم — ولو بقدر غير غزير — بتأثير القوى الاجتماعية والسياسية والدينية والاقتصادية والصناعية ... وغيرها من القوى على السياسات التعليمية وإجراءاتها .. من المحتم على المربى الكفء الصالح ، أن يعى الإطار الذى حدثت وتحدث فيه العملية التربوية . ليس المربى إنساناً آلياً يدق الجرس فيقف وتتحرك ساقاه وذراعاه إلى أن يصل إلى حجرة الدراسة ، وتبدأ الحصة وتنتهى بروتينيات رتيبة غطاها الملل من كثرة ترديدها . فتنتهى حصة التاريخ مثلا ، وتتحرك ساقا المعلم وذراعاه إلى مكان ما .

فى بعض الأقطار المتقدمة تكنولوجياً مئات وألوف من العقول الاليكترونية وأحاديث عن الروبوت أو الإنسان الآلى . وهو (شىء مصنوع من معادن وغيرها) ولكن المهم أنه مبرمج . أى يحوى فى داخله أطوالا هائلة من أسلاك وصمامات ولفافات ترانسيستورية دقيقة الصنع ، وهذه كلها تغذت ببرامج ومناهج ومعلومات أتاحت لهذا (الشىء) إمكانية الإجابة عن الأسئلة وحل مشاكل ، بل وتعليم الغير على نهج معد سابقاً ، ناس غذوا هذا الإنسان الآلى بمعلومات ينقلها كما هى فى أمانة نادرة ودقة مذهلة !!

المدرس الكفء أسمى وأجل وأثمن من مجرد أمين على نقل معلومات والتأكد من أن تلاميذه حفظوها على ظهر القلب . هو مشكل للعقول ومكون للاتجاهات ومعدل للسلوك . وهو صانع أجيال المستقبل .

الجيل الصاعد محتاج إلى جانب المادة العلمية إلى قيم واتجاهات وبناء جسمى سليم ؛ ويمكن ببساطة يسيرة الحصول على المادة العلمية الصحيحة (نسبياً) إذا كانت الكتب المدرسية المقررة صحيحة . والبناء الجسمى السليم مسألة تتصل بالغذاء والعوامل الصحية ، ودور المدرس هنا محدود . ولكن دوره فى تكوين وزرع القيم والاتجاهات هائل هادر .

هنا يحق لنا القول إن الإلمام بالعوامل المؤثرة على العملية التربوية كما كانت وكما هى الآن ، وكما ستكون فى المستقبل أمر حتمى إذا كان المسئولون عن التربية فى مجتمع ما جادين بكل الإخلاص فى تنشئة سليمة للأجيال الصاعدة .

ولكى يفهم ويعرف المعلم كنه وطبيعة العملية التربوية التى يشترك فيها اليوم أو سيشترك فيها مستقبلا ، عليه أن يتطلع دارساً ومستطلعاً إلى الدرب الذى سارت فيه .

إن موقف الطفل فى الفصل اليوم إزاء (أمر) يصدره المدرس وطبيعة استجابة الطفل له تحمل فى طياتها تراثاً ماضياً قد يمتد إلى مئات السنين . لم هذا السكون المخيم على حجرة الدراسة ؟ لم هذا الاعتراض الصارخ من تلميذ على قول قاله المدرس وبين الاثنين اختلاف فى وجهة النظر ؟ أرأيت حضرة الأستاذ ناظر المدرسة وهو يتلصص سائراً فى خطى خفيفة بجوار حائط يفصل الفصول عن ممر تتهادى عليه أقدام سيادته لتلتقط أذناه ما يدور داخل الفصول؟ ثم نسمع عن موجه جمع المدرسين وعرض عليهم مشكلة تاركاً لهم حلها دون أن يفرض عليهم إرادته ... ونسمع . ونسمع ...

لكل من هذه التصرفات أو المواقف أو الاتجاهات أو القيم جذور فى الماضى أفصحت عن نفسها فى الحاضر ، وستضفى تأثيراتها فى المستقبل . بل إن الموقف التربوى فى علاقة مدرس بتلميذه ، أو فى فهمه للمنهج المقرر ،

أو فى علاقته برئيسه أو فى إعداده لدرسه ... قد أثار فى الماضى جدلا ربما استمر مئات السنين وأثار مناقشات حامية جدير بالمعلم أن يعرف شيئاً عنها ؛ لأنه يتعامل مع نفوس وعقول بشرية .

هو إنسان يتعامل مع أخيه الإنسان ويستخدم مادة علمية ووسائل تعليمية. وفى تعامل المعلم مع التلاميذ قد يسلك واحداً من مسالك شتى ، وفى محاولته أن (يعرف) التلاميذ المادة العلمية قد يتخير طريقة من بين طرق عدة . بل إن موقفه هو إزاء هذه المادة تكونه فلسفته واتجاهاته .

المدرس أجل وأسمى فى إعداده وتربيته من الكثيرين من أصحاب الحرف أو المهن العالية ؛ ذلك أن اتباع أسلوب التقليد والمحاكاة يوقف عملية التقدم التربوى ، وقد وقفت فى مجتمعنا أزماناً طويلة وأكاد أقول إنها اليوم تتحرك ببطء شديد هو أقرب إلى التوقف منه إلى الحركة التقدمية فى عصر يعيش على عجلات تجرى . أقول حركة بطيئة . وفى هذا خير طفيف يحتمل أن يزيد إذا زادت السرعة تدريجياً ويجب أن تزيد وإلا أصبحت التربية اليوم وكأنها جزء من تاريخ التربية ما زال يعيش حياً . التاريخ يعنى الماضى .

على المشتغل بالتربية أن يلم بفلسفاتها المختلفة التى أخرجتها عقول شرقية وغربية كما عليه أن يدرس النظريات التربوية بما فيها من التقليدية ، والماهيوية (الجوهرية) والتقدمية . ولعل فى دراسته للفلسفات والنظريات ما يعينه على تكوين وجهة نظر خاصة به ، مؤمن بها ويجدواها وفاعليتها . وقد يعينه هذا الموقف وذلك الفهم على صقل عمله التربوى .

ودراسة المربى لتطور الفكر التربوى ستوقفه على مجهودات ومحاولات أفراد وجماعات سابقين ، وما أصابوه من نجاح أو فشل . ومن تعرف أسباب وعوامل النجاح والفشل يستخلص المربى حصيلة ثرية قد تنقذ أفراداً وجماعات من فقدان جهد ووقت ومال .

نحن لا يمكننا أن نتجاهل آلاف السنوات من الجهد التربوى فى مختلف البقاع ومختلف الفلسفات . مجهودات شكلت عقلنا اليوم ، وبسطت أمامنا

أفكاراً نفذت وأخرجت نتائج يتدبرها الجادون من رجال التربية .. خذ مثلا :

— ماذا يحدث للإنسان وللمجتمع وللثقافة عندما تهيمن العسكرية على كافة جوانب العملية التربوية ؟ حدث هذا فى أسبرطة منذ حوالى أربعة وعشرين قرناً

— ماذا يحدث عندما تتشكل وتتكيف التربيـة تبعاً للنظام الطبقى (أو الطائفى) بدلا من تكيفها تبعاً للقدرات والإمكانيات ؟ حدث هذا فى الهند عبر قرون طويلة .

— ماذا يحدث عندما توجه التربية وتعبأ إمكانياتها لبناء إمبراطورية والإبقاء عليها ردحاً طويلا ؟ حدث هذا فى إمبراطوريتى الفرس والرومان .

— ماذا يحدث عندما تأخذ التربية نمطاً لا عقلياً ؟ حدث هذا فى أوروبا فى العصور الوسطى على أيدى الرهبان فى الأديرة .

— ماذا يحدث عندما يفهم مدرك التربية الديمقراطية على أنه يخص جماعة مميزة قليلة العدد فى المجتمع . هم الأرستوقراطية ؟ حدث هذا فى أثينا الأغريقية.

— ماذا يحدث عندما لا تتدخل القوى الدينية أو العقائد المسبقة الراسخة فى البحث العلمى وفى الفلسفة ؟ حدث هذا عند مسلمى القرنين العاشر والحادى عشر .

— ماذا يحدث عندما تتحكم وتهيمن الأطر العقائدية المسبقة على الدراسة والبحث ؟ حدث هذا فى المجتمع الغربى فى العصور الوسطى .

— ماذا يحدث عندما تمجد التربية وتهتم بالكياسة والخلق الاجتماعيين على حساب الجانبين المهنى والعقلى ؟ حدث هذا زمن الإقطاع فى تربية الفرسان فى أوروبا فى العصور الوسطى .

— ماذا يحدث عندما تسيطر طوائف دينية وتضفى اهتماماتها الخاصة على العملية التربوية ؟ حدث هذا بصورة واضحة فى أمريكا فى القرن الثامن عشر قبل ثورتها .

— ماذا يحدث عندما تصبح التربية أداة للبث العقائدى السياسى ، وسلاحاً ماضياً فاعلا فى أيدى المهيمنين على الحكم ؟ حدث هذا فى ألمانيا النازية .

— ماذا يحدث عندما تصبح التربية أداة الثورة الاجتماعية — الثقافية ؟ حدث هذا فى روسيا وفى الصين الحديثة .

— ماذا يحدث عندما تصبح التربية أداة تنوير للمواطنين والخروج بهم بعيداً عن ظلام الجهالة ؟ حدث هذا فى الدانمرك .

— ماذا يحدث عندما تصبح التربية القوة والركيزة التى تبنى بها الدولة كيانها من جديد ؟ حدث هذا فى اليابان الحديثة .

عشرات بل مئات الأمثلة مأخوذة من خبرات البشر فى تراكمها المتزايد مع طى السنين ، تفيدنا كمربين فى عملنا داخل حجرة الدراسة إلى التخطيط الشامل للسياسة التعليمية للدولة . ولعل الأمم النامية فى أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية وغيرها فى أمس الحاجة إلى الدراسة الواعية الفاحصة لهذه الخبرات البشرية .

ويستطيع دارس الفكر التربوى وضع أصابعه على العلاقة بين الجانب النظرى والجانب العملى فى العملية التربوية . سوف تنكشف له مفاهيم عديدة ومفيدة تساعده على رؤية أسس الجانب العملى التربوى من ثنايا دراسته للنظريات التربوية والأفكار الاجتماعية . وعندما يجلس المربى فى حضرة المعلمين العظام والكبار من المربين من الشرق ومن الغرب ، كسقراط وأفلاطون وبوذا وأرسطو وسانت توما الأكوينى والغزالى ورفاعة الطهطاوى وروسو وفروبل وديوى وماكارينكو وغيرهم — عندما يجلس إليهم ويعرف عن مجهوداتهم وإنجازاتهم ، تتفتح له آفاق واسعة ، تسمو به إلى أعلى من مجرد تحفيظ جدول الضرب ، أو التأكد من أن أخوات كان لم تنقص منهن أخت .

لا يقصد المؤلف أن يعيش المعلم فى برج عال عاجى ، وإنما يرجو له أن يقف بقدميه على أرض صلبة أمام تلاميذه ورأسه أعلى بكثير من سقف حجرة الدراسة ، شاهقة ناظرة إلى مختلف الآراء والاتجاهات ، ومتخيرة منها ما يحسن الواقع الذى يقف عليه بقدميه .

طفل هذا الذى يحيا حاضره ولا يعرف ماضيه ، طفل فى علمه وعمله

وقاصر فيهما ، ونظرته قد لا تمتد إلى أبعد من المكان الذى يقف عليه ، وبالتالى فان تأثيره فيمن حوله ضئيل عليل ، لأن شيئاً هاماً ينقصه .

ولكى نقدر ما نحن فيه من تقدم لا بد أن نعرف كم من الجهد بذل فى الماضى أوصلنا إلى ما نحن عليه اليوم ، ثم نتطلع إلى المستقبل ، ولعل لنا دوراً فى بنائه ، فلا يكفى ولا يجب أن نأكل ثماراً من شجرة زرعها السابقون دون أن نزرع نحن شجراً يثمر للقادمين .

وأنت تجلس إلى الفلاسفة والمربين من الشرق والغرب سوف تحس بمعنى وحدة البشر وأخوتهم ، وسوف تلمس كيف أن نتاج العقل البشرى لم توقفه حدود دولية خطها الإنسان ، أو محيطات واسعة أو جبال شاهقة . تخطت الأفكار كل هذا وذاك ، وكانت وما تزال وستظل أقوى من الزمن فى بقائها وخلودها وتأثيرها .

ومن يدرى ؟ فربما أنت أيها القارىء قد تطلع علينا باسهام يضاف إلى رصيد الفكر التربوى الذى نبدأ رحلتنا معه بادئين من العصور القديمة .